

دلالات الأفعال في قصة يوسف -عليه السلام- مشهد التآمر على قتل يوسف عليه السلام

الأستاذة: عبداوي حفيظة

جامعة جيلالي ليابس

كلية الآداب واللغات والفنون

تسم اللغة العربية وآدابها

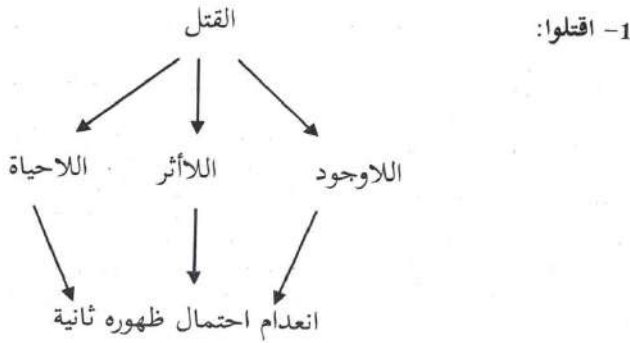
ملخص: حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية، الوقوف على بعض الأفعال الواردة في قصة يوسف عليه السلام، وبالضبط ما جاء منها للتعبير عن مشهد تآمر إخوته على قتله، وما تحمله من شحنات دلالية متنوعة.

تتفرد قصة يوسف عليه السلام بذكرها كاملة في سورة سميت باسمه، وبكونها تضمّنت أحداثاً عائلية قلّما تقع، فيها عبر وعظات؛ تصلح النفس، والبيت، والأسرة، والمجتمع، إنها تحثّ على الأخلاق كي تبقى الأمم؛ لأنهم على حد تعبير أحمد شوقي - إن ذهبت أخلاقهم ذهبوا. كما تحثّ الإنسان على أن يطمئنّ إلى رحمة الله وعدله مهما أصابه من الحزن والابتلاءات، ومهما حلّ بساحة دنياه من المكاره والمنغصات.

قال تعالى على لسان الإخوة: (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) ¹.

الملاحظ أن الفعلين: اقتلوا / اطرحوه.

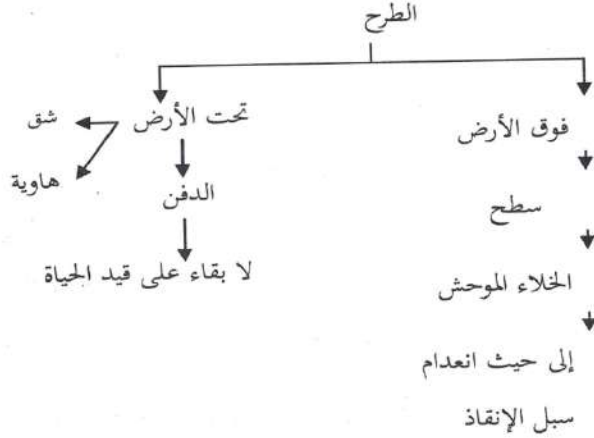
قد استعملا بصيغة الأمر وهما يحملان دلالة الإصرار على الانتقام من يوسف، إنها صيغة (أمرة) موجهة لضمير الجمع (أنتم)، ومن ثمة نلمس في كل فعل حضور الأنا بقوة، فلكان الحوار يُدار انطلاقاً من كل "أنا" موجودة في القصة، فتفجر هذه الأنا عند كل متكلم، وهي تستمع لهمسات الشيطان فهو صاحب فكرة القتل وسيدها، ويمكن أن نعبر عن هذه الأفعال الصادرة من الأنوات المختلفة (أنوات إخوة يوسف) بالخطاطات الآتية:



(وهذا الذي يصبوا إليه الإخوة)

¹ - سورة يوسف، الآية 9.

2- اطرحوه:



لقد سبق القتل الطرح، فالمعنى الثاني هو الآخر إلى حيث تنتهي الحياة، فإخوة يوسف فكروا في قتله أولاً، ثم في طرحه بأرض من الأراضي البعيدة، وكلا الفعلين يحمل دلالة البعد (الإبعاد) فالقتل يبعده عن الحياة، والطرح يبعده عن الأرض التي يمكن أن يجد فيها من يأخذ بيده ويساعده على العودة إلى أحضان الوالد الملهوف؛ إذن فمحاولة التخلص من يوسف عليه السلام صورها لنا الفعلين (اقتلوا - اطرحوه)، فنحن نتخيل القتل وما يحدثه من توقيف الأنفاس، ونتصور الطرح

وما يترتب عليه من معاناة، وماذا بعد الطرح في أرض نائية غير الهلاك؟.

3- يخل:

يدل الفعل (يخل) بهذه الصيغة، على الإقبال دون الالتفات إلى أحد، وفيه أيضا دلالة على أن محبة يعقوب -عليه السلام- بعدما يغيب يوسف ستبقى خالصة لهم؛ إذ المحبوب المفضل صار في خبر كان وقديما قال الشاعر:

وَكَمَا تَبْلَى وَجُودُهُ فِي الثَّرَى كَذَا يَبْلَى عَلَيْهِنَّ الْحَزَنُ²

لا يود إخوة يوسف إذن أن يلتفت يعقوب -عليه السلام- إلى غيرهم، إذ هم العصبة القادرة، فهم الأولى من القلة العاجزة (يوسف وأخوه)، وفي اعتقادهم أن أباهم إذا اختفى عنه وجه يوسف، فإنه سيختفي من قلبه، ونسوا أنه بالإمكان ابتعاد الأحبة أو اختفائهم عن أعين محبيهم، ولكن مكانهم في القلب لا يمكن أن يختفي، خاصة إذا كانت هذه المكانة بحجم مكانة يوسف في قلب أبيه يعقوب -عليهما السلام-.

² - محمد بن أيدير المستعصي، الدر الفريد وبيت القصيد، تحقيق: د. كامل سلمان الجبوري، تقديم أ. د. نوري حمودي القيسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، المجلد الخامس، القسم الأول من الجزء الثالث، تمتع حرف الألف -حرف الباء -حرف التاء -حرف الناء، ص 212.

إن ذكر الوجه في هذه الآية الكريمة إنما جاء لتصوير معنى إقباله عليهم "لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه، ويجوز أن يراد بالوجه الذات كما في قوله تعالى: (وَيَقْفَى وَجْهَ رَبِّكَذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)"³. لا يكون الإقبال على الشيء إلا إذا صفا القلب، وفرغ من كل ما يمكن أن يلهمه عن هذا الإقبال، سواء أكان إقبالا على عاقل أم على غير عاقل.

قال تعالى: (وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)⁴

يحمل الفعل "تكونوا" دلالة الوجود والكيونة، ومن خلال هذه الدلالة نكاد نسمع صوت الشيطان، فهو الذي ينتزع بين الناس (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)⁵، وهو الذي يضل عن سبيل الله (وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)⁶، وهو الذي يوسوس للإنسان حتى إذا ما تمكن منه: (قَالَ إِنِّي بُرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)⁷، وهو الذي يسيطر على الأعصاب ويسيرها في لحظات الغضب، ويقودها إلى الجنون ف

³ - سورة الرحمن، الآية 25.

⁴ سورة يوسف، الآية 9.

⁵ - سورة الأعراف، الآية 200.

⁶ - سورة النمل، الآية 24.

⁷ - سورة الحشر، الآية 16.

﴿تفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث، وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا... والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات وليست التوبة هكذا... إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً غير ذاك، حتى إذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة"٨.﴾

تقبل التوبة إذن من الذين يعملون السيئات جهلاً في لحظات الغضب والثورة، حتى إذا ما انقضت تلك اللحظات واثبوا إلى رشدهم، دعوا الله مخلصين له الدين. وفي النص القرآني ما يثبت قبول التوبة عند الله إحساناً منه تبارك وتعالى، وتفضلاً على عباده: (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)٩، لم يكن إخوة يوسف -عليه السلام- من هذا الصنف، ولكنهم كانوا مصرين على فعل السوء بأخيهم ومحاولة التخلص منه بشتى السبل، حتى إذا حققوا مبتغاهم، و أَرَدُوا يوسف قتيلاً، عادوا إلى الله طالبيين التوبة.

في خضم هذه الأحداث المتأزمة، يتفجر أنا الأخوة في أحدهم - لحظة عروج الشيطان في منطقة الهو وقد نام الحارس - ويغتم

٨- الحمصي، أحمد فائز، قصص الرحمن في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت،

ط. 1، 1415 هـ- 1995 م، ج. 2، ص 214.

٩- سورة النساء، الآية 17.

هذا الأنا الفرصة ليصرخ بأعلى صوت ممكن، وفي سرعة
خاطفة قبل أن يتمكن منه الشيطان، (لا تَقْتُلُوا يَوْسُفَ وَأَلْقُوهُ
فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) يري
بعض المفسرين¹⁰ أَنَّ القائل هو يهوذا وهو أكبر ولد
يعقوب، قال ابن عزيز: كل شيء غيب عنك شيئا فهو غيابة،
ومنه قيل للقبر غيابة قال الشاعر:

فَإِنْ أَنَا يَوْمًا غَيْبْتَنِي غَايَاتِي

فَسِيرُوا بِسِرِّي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ¹¹

يحمل الإلقاء في غيابات الجب* دلالة المكان المظلم الذي لا
يظهر فيه شيء، وإنما يغيب عن العين ويختفي، مثله كمثل الذي

يُقْبَر، فهو الآخر يغيب عن العيان ويختفي مِنْ عَلَى الْأَرْض إِلَى

¹⁰ -منهم الزمخشري (538هـ) و القرطبي (671هـ).

¹¹ -زيتون، محمد محمد، القيروان ودورها في الحضارة الاسلامية، دار
المنار، القاهرة، ط1، 1988، ص307.

* هي البئر التي لم تُطَوَّر، وتسميته بذلك إما لكونه محفورا في جبوب؛ أي
في أرض غليظة، وإما لأنه قد جُبَّ والجب قطع الشيء من أصله كجب
النخل. ينظر الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف
بالراغب، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط،
د.ت، ص85.

	الموت	الحياة	الوحدة	الضميق	الظلام	الوحشة	العمق	الخوف
الجب	ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح
ب	ضو	ضو	ضور	ضو	ضو	ور	ضو	ضو
	ر	ر	تجلي	ر	ر	تجلي	ر	ر
	غيا	تجلي		تجلي	تجلي		تجلي	تجلي
	ب							
القة	ح	غيا	ح	ح	ح	ح	ح	ح
بر	ضو	ب	ضور	ضو	ضو	ور	ضو	ضو
	ر		تجلي	ر	ر	تجلي	ر	ر
				تجلي	تجلي		تجلي	تجلي

أسفلها، وبالإمكان اعتماد الجدول الآتي لتوضيح ذلك:
يقدم هذا الجدول تصوير العلاقة القائمة بين المكانين (الجب والقبر) من حيث اشتراكهما في جملة من المعطيات الخاصة بهما، وإذا نظرنا إلى طبيعة كل واحد منهما من حيث المكانية والزمانية فإننا واجدون:

المكانية		طبيعة المكان		الزمانية	
الجب	أرضي	سمائي	مغلق	مفتوح	أبدية
	محدودية	الزمن	الزمن	محدودية	الزمن
	حضور	غياب	غياب	حضور	غياب
القبر	حضور	حضور	حضور	غياب	غياب

إذا كان الجب والقبر يفترقان في بعض الأمور، فإنهما يلتقيان في أمور أخرى كثيرة وفي هذا دلالة على إشراكهما في المبني والمعنى، المبني من حيث كونهما محلها الأرض. والمعنى من حيث كونهما يتخذان موضعاً واحداً من هذه الأرض، وهو باطنها المظلم، الضيق، العميق، الموحش...

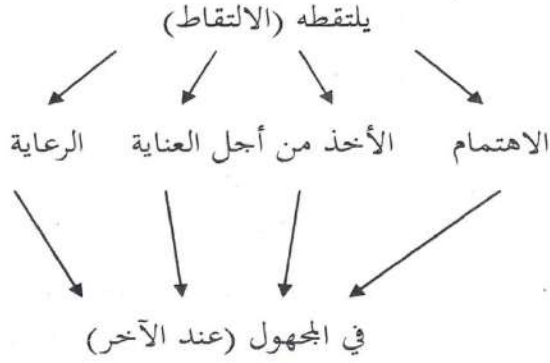
4-الْقَوْه: في قول هذا الفرد بالإلقاء شيء من اللين وقلة العنف إذا نحن قارناه بالأفعال التي قالت بها الجماعة، إذ هو يتفق معهم في قضية التخلص لكنه يختلف عنهم في كيفية التخلص، هم يريدون موته، وهو يريد له الحياة لكن بعيداً عنهم لقد أدركته عاطفة الأخوة في غياب الشيطان فطلب منهم التنازل عن القتل إلى ما هو دونه، لأن الإنسان مهما غلبت ذروة الشرّ فيه غالباً يفني إلى طبعه، وإن كان في الإلقاء دلالة الإهمال واللامبالاة والغياب فإنه مع ذلك يحمل دلالة الحياة.

5- يلتقطه: في التقاط بعض السيارة له دلالة على إبعاده عن المكان وهذا الذي يصبو إليه إخوة يوسف -عليه السلام- فهو إن لم يبعد عن المكان، لا شك سيعود إلى البيت وحينذاك يطلع الوالد على قصدهم فيكون أحق به من السيارة. ويحمل معنى الالتقاط " وجود الشيء على غير طلب" ¹² فالسيارة لم يطلبوا غلاماً (يوسف)، و لكنهم وجدوه على أمرٍ قد قدير.

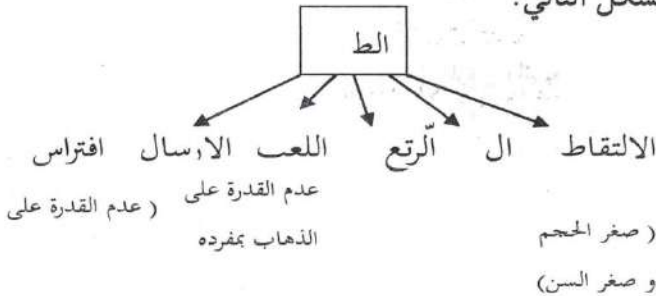
في الالتقاط أيضا دلالة على صغر سن يوسف - عليه السلام- لما طرح في الجب، لأن الذي يلتقط لا بد و أن يكون صغيراً (سواء أكان إنساناً أم حيواناً أم جماداً)، ومن الدلالات على صغر سن يوسف قوله تعالى: (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لأن أمر افتراس الذئب يختص بالصغار ¹³ دون الكبار، إذ بإمكان الكبير أن يدافع عن نفسه بطريقة ما، أما الصغير فلا حول له ولا قوة إلا أن ينجيه الله.

¹² -القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، مج 5، ص 2606.

¹³ - ينظر المصدر السابق، المجلد 5، ص 2606.



هذا صوت الفرد، أما أصوات الجماعة فلم تكن تريد له الحياة، لا في الحاضر عند الآن، ولا في المجهول عند الآخر، وإنما كانت تردد: (اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا) وكذلك قوله تعالى: على لسان الإخوة (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، فالصبي وهو يلعب يكون في الغالب الأعم مراقباً، كما أن الرتع واللعب يختصان بالصغار ويمكن أن تمثل لما ذكرنا بالشكل التالي:



تعتمد هذه الصورة القصصية على الفعلين المضارعين (يرتع ويلعب) وهي طريقة القرآن الخاصة في استحضار المشاهد، وعرضها أمام العيون متحركة نابضة بالحياة. ويتحرك ضمير الأخوة من جديد محاولاً تشكيكهم فيما عزموا عليه، نلمس ذلك في قوله تعالى: (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)¹⁴؛ إذ إنه يحمل دلالة إعادة النظر فيما أجمعوا عليه "وهو أسلوب من أساليب الشبیط¹⁵ عن الفعل، وواضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ"¹⁶، ولكن إخوة يوسف - عليه السلام - ما كانوا ليتراجعوا عمّا عزموه من قتل يوسف - عليه السلام -. لولا أن أنجاه الله وصرف عنه كيدهم؛ إله كان من عباده المخلصين.

¹⁴ - سورة يوسف، الآية 10

¹⁵ - ثبطه عن الأمر: عوّقه، ويطأ به عنه، يقال: ثبطه المرض وأثبطه إذا حبسه ومنعه ولم يكذ يفارقه. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط 80، 1426هـ-2005م، ص 661.

- وينظر في ذلك أيضاً: الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب، المفردات في غريب القرآن، ص 78.

¹⁶ - الحمصي، أحمد فايز، قصص الرحمن في ظلال القرآن، ج 02، ص 214.